مقدمة

هذه صحف لم تُكتب للعلماء ولا للمؤرخين؛ لأنى لم أرد بها إلى العلم، ولم أقصد لها إلى التاريخ. وإنما هى صورة عرضت لى أثناء قراءتى للسيرة فأثبتها مسرعًا، ثم لم أر بنشرها بأسًا. ولعلى رأيت فى نشرها شيئًا من الخير؛ فهى ترد على الناس أطرافًا من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم، فليس يقرؤها منهم إلا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة فى الأدب العربى القديم. وإنك لتلتمس الذين يقرءون ما كتب القدماء فى السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم.

إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون فى الأدب الحديث بلغتهم أو بلغة أجنبية من هذه اللغات المنتشرة فى الشرق، يجدون فى قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة، ومن اللذة والمتاع، ما يُغريهم به ويرغبهم فيه، فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة، وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عسرًا. وأين هذا القارئ الذى يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة، والأخبار التى يلتوى بها الاستطراد، وتجوز لها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذى لا يكلف مشقة ولا عناء!

ذلك أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتًا مستقرًا، لا يتغير ولا يتبدل، ولا يلتمس الناس لذته إلا فى نصوصه يقرءونها ويعيدون قراءتها، ويستظهرونها ويمعنون فى استظهارها، إنما الأدب الخصب حقًا، هو الذى يلذك حين تقرؤه؛ لأنه يقدم إليك ما يُرضى عقلك وشعورك، ولأنه يوحى إليك ما ليس فيه، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص، ويعيرك من خصبه خصبًا، ومن ثروته، ومن قوة قوة؛ وينُطقك كما أنطق القدماء، ولا يستقر فى قلبك حتى يتصور فى صورة قلبك، أو يصور قلبك فى صورته، وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم فى شكل جديد يلائم حياتهم التى يحيونها، وعواطفهم التى تثور فى قلوبهم، وخواطرهم التى تضطرب فى عقولهم.

هذا هو الأدب الحى. هذا هو الأدب القادر على البقاء ومناهضة الأيام. فأما ذلك الأدب الذى ينتهى أثره عند قراءته، فقد تكون له قيمته، وقد يكون له غناؤه، ولكنه أدب موقوت يموت حين ينتهى العصر الذى نشأ فيه. ولو أنك نظرت فى آداب القدماء والمحدثين لرأيت منها طائفة لا يمكن أن توصف بأنها آداب عصر من العصور أو بيئة من البيئات، أو جيل من الأجيال، وإنما هى آداب العصور كلها، والبيئات كلها، والأجيال كلها؛ لا لأنها تُعجب الناس على اختلاف العصور والبيئات والأجيال فحسب، بل لأنها مع ذلك تلهم الناس وتوحى إليهم، وتجعل منهم الشعراء والكتاب والمتصرفين فى ألوان الفن على اختلافها.

وليس خلود الإلياذة يأتيها من أنها تقرأ فتحدث اللذة وتثير الإعجاب فى كل وقت وفى كل قطر؛ بل هو يأتيها من هذا، ومن أنها قد ألهمت وما زالت تلهم الكتاب والشعراء، وتوحى غليهم أروع ما أنشأ الناس من آيات البيان. ولقد كان "إيسكولوس" أبو التراجيديا اليونانية يقول إنه إنما يلتقط ما يسقط من مائدة هوميروس. وما زال القصاص وشعراء التمثيل والغناء فى الغرب خليقين أن يقولوا الآن ما كان يقوله إيسكولوس منذ خمسة وعشرين قرنًا. ولم تكن قصص إيسكولوس وغيره من شعراء التمثيل اليونانى أقل خصبًا من الإلياذة؛ بل هى قد ألهمت من الكتاب والشعراء قديمًا وحديثًا، وما زالت قادرةً على أن تلهمهم إلى اليوم وإلى الغد.

وإنى لأذكر أنى قرأت منذ أعوام قصة تمثيلية هى الثامنة والثلاثون من نوعها، وقد سماها صاحبها "جيرودو" بهذا الرقم؛ فوضع لها هذا العنوان "انفيتريون رقم ٣٨". كانت أسطورة تتصل بمولد هرقل فصورها سوفوكل قصة تمثيلية فى القرن الخامس قبل المسيح. وما زال الشعراء والكتاب من اليونان والرومان والأوربيين المحدثين يتأثرون ويذهبون مذهبه أو غير مذهبه، فى تصوير هذا الموضوع، حتى انتهت القصص التى كتبت فيه شعرًا ونثرًا إلى هذا العدد الضخم.

ولم يُحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سُبقوا إليه، بل زادهم ذلك حرصًا عليه ورغبة فيه. وكان بين الذين طرقوه الشاعر اللاتينى "بلوت" والشاعر الفرنسى "موليير". ثم لم يُشفق جيرودو من أن يطرق موضوعًا سبق إليه الفحول من شعراء التمثيل فى العصور القديمة والحديثة، فصوّر قصته هذه الثامنة والثلاثين وعرضها على النظارة فى باريس سنة ١٩٢٩ فكان فوزها عظيمًا، وإعجاب النظارة والقراء بها لا حد له.

وفى أدبنا العربى على قوته الخاصة، وما يكفل للناس من لذة ومتاع، قدرة على الوحي، وقدرة على الإلهام. فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة، ولم تحفظ فى صورة بعينها، وإنما قصها الرواة فى ألوان من القصص، وكتبها المؤلفون فى صنوف من التأليف. وقل مثل ذلك فى السيرة نفسها؛ فقد ألهمت الكتاب والشعراء فى أكثر العصور الإسلامية وفى أكثر البلاد الإسلامية أيضًا؛ فصوروها صورًا مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفنى. وقل مثل هذا فى الغزوات والفتوح، وقل مثل هذا فى الفتن والمحن التى أصابت العرب فى العصور المختلفة. ولم يقف إلهام هذا التراث الأدبى العظيم عند الكتاب والشعراء الذين ينمقون النثر ويفرضون الشعر، فى اللغة العربية الفصحى، بل جاوزهم إلى جماعة من القصاص الشعبيين الذين تحدثوا إلى الناس فى صور مختلفة وأشكال متباينة، بما كان لآبائهم من مجد مؤثل، وبما أصاب آباءهم من محن مظلمة وفتن مدلهمَّة، عرفوا كيف يثبتون لها ويصيرون عليها، ويخرجون منها كرامًا ظافرين. ولا خير فى حياة القدماء إذا لم تُلهم المحدثين ولم توح

إليهم رائع البيان شعرًا ونثرًا. وليس القدماء خالدين حقًا إذا لم يكن التماسهم إلا عند أنفسهم، ولا تعرف أنباؤهم إلا فيما تركوا من الدواوين والأشعار. إنما يحيا القدماء حقًا، ويخلدون إذا امتلأت بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال مهما يبعد بها الزمن، وكانوا حديثًا للناس إذا لقى بعضهم بعضًا، وكنوزًا يستثمرها الكتاب والشعراء لإحياء ما يعالجون من ألوان الشعر وفنون الكلام.

إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم، ومن إحياء ذكر العرب الأولين، قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب. ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسى ولا عن هذا الكتاب؛ فإنى لم أفكر فيه تفكيرًا، ولا قدَّرته تقديرًا، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون؛ إنما دفعت إلى ذلك دفعًا، وأكرهت عليه إكراهًا، ورأيتنى أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسى، ويفيض بها قلبى، وينطلق بها لسانى، وإذا أنا أملى هذه الفصول وفصولاً أخرى أرجو أن تنشر بعد حين.

فليس فى هذا الكتاب إذًا تكلف ولا تصنع، ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب للتقصير، وإنما هو صورة بسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التى لا أعدل بها كتبًا أخرى مهما تكن، والتى لا أمل قراءتها والأنس إليها، والتى لا ينقضى حبى لها وإعجابى بها، وحرصى على أن يقرأها الناس. ولكن الناس مع الأسف لا يقرءونها؛ لأنهم لا يريدون أو لأنهم لا يستطيعون، فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة، وكتب الأدب العربى القديم عامة، والتماس المتاع الفنى فى صحفها الخصبة، فأنا سعيد حقًا، موفق حقًا لأحب الأشياء إليى، وآثرها عندى.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يُلقى فى نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أن فى سذاجتها ويسرها جمالاً ليس أقل روعة ولا نفاذًا إلى القلوب من هذا الجمال الذى يجدونه فى الحياة الحديثة المعقدة، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى، واتخاذها موضوعًا قيمًا خصبًا لا للإنتاج العلمى فى التاريخ والأدب الوصفى وحدهما، بل كذلك للإنتاج فى الأدب الإنشائى الخالص، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد.

ثم إذا استطاع هاذ الكتاب أن يلقى فى نفوس الشباب أن القديم لا ينبغى أن يهجر لأنه قديم، وأن الجديد لا ينبغى أن يطلب لأنه جديد، وإنما يهجر القديم إذا برئ من النفع وخلا من الفائدة، فإن كان نافعًا مفيدًا فليس الناس أقل من حاجةً إليهم إلى الجديد، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد.

وأنا أعلم أن قومًا سيضيقون بهذا الكتاب؛ لأنهم مُحْدثَون يُكبرون العقل، ولا يثقون إلا به، ولا يطمئنون إلا إليه. وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التى يسيغها العقل ولا يرضاها. وهم

يشكون ويلحون فى الشكوى حين يَرَوْنَ كلفَ الشعب بهذا الأخبار، وجده فى طلبها، وحرصه على قراءتها والاستماع لها. وهم يجاهدون فى صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث، واستنفاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول. هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشىء؛ لأنهم سيقرءون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث، واستفادة من سلطانها الخطر المفسد للعقول. هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء؛ لأنهم سيقرءون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التى نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس. وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل، ولم يرضها المنطق، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمى، فإن فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها، ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ويدفعونهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة. وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش.

وأحب أن يعلم الناس أيضًا أنى وسَّعت على نفسى فى القصص، ومنحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسًا، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبى، أو بنحو من أنحاء الدين؛ فإنى لم أبح لنفسى فى ذلك حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث، ورجال الرواية، وعلماء الدين.

ولن يتعب الدين يريدون أن يردُّوا فصول هذا الكتاب القديم فى جوهره وأصله، الجديد فى صورته وشكله، إلى مصادره القديمة التى أخذ منها. فهذه المصادر قليلة جدًا؛ لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبرى. وليس فى هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد فى كتاب من هذه الكتب. فإذا اتصل الخبر بشخص النبى فإنى أرده إلى مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع إليه، لا أحتمل فى ذلك تَبعةً خاصة، لأنى لا أذهب فيه مذهبًا خاصًا، إلا أن يكون تبسطًا فى الشرح والتفسير واستنباط العبر والوصول بها إلى قلوب الناس.

فلييسر اللهُ سبيل هذا الكتاب إلى النفوس، وليحسن الله موقعه فى القلوب.

طه حسين

ديسمبر سنة ١٩٣٣